عزبة الشحات

(١)

العزبة بطريق القاهرة إسكندرية الزراعي بالقرب من عزبتنا...

يمتلكها مليونير يُدعى محسن عبد العاطي الشحات، هو فعلاً كان شحاذًا أبًا عن جد، أي بالوراثة!

وعمل بهذه المهنة حوالي خمسة وعشرين عامًا، وهو الذي أسس (نقابة الشحاتين)، وكان رئيسًا لها لسنوات طويلة.

وذلك كان منذ زمن بعيد، وقليلون هم الذين يعرفون هذه السيرة، هكذا قال لنا جدي، وقد علّق محسن بك كما يطلقون عليه بالعزبة صورة لكلٍ من المرحوم والده بطاقيته الصوف، وجده المرحوم الحاج فرحات بعمامته الضخمة داخل إطارين مطليين بماء الذهب على جدار جناحه الخاص بفيلته بالعزبة.

وقد هجر محسن بيه عمارته بالقاهرة الجديدة، وأغلقها منذ سنوات بالضبة والمفتاح، وفضّل الإقامة بالعزبة التي اشتراها حديثًا

نظرًا لجوها الجميل وطيبة ناسها، وكونها بعيدةً عن جيرانه ومعارفه القدامى الذين عاصروا مشواره الطويل في التسول إلى أن وصل إلى ما هو فيه الآن من عز وجاه وأُبهة!

أنجب ثلاث بنات هن سميحة وجمالات وجميلة، وليس عنده ولد..

زوجته كانت تعمل في نفس الكار قبل الاعتزال، فهي أيضًا شحاتة بنت شحات!

لكن من يراها الآن يظن أنها زوجة باشا وبنت باشوات، هل ذلك اجتهادٌ أم شطارة أم حظ؟، الله أعلم.

وهناك مثل يقول: «قيراط حظ ولا فدان شطارة».

وذات يوم تقدّم المهندس الزراعي مصطفى شكري لخطبة ابنته الكبرى سميحة، وهي مهندسة زراعية أيضًا. ومصطفى موظف على الدرجة الأولى بمديرية الزراعة بالقاهرة، عرفها عن طريق (عم عليوة) بلدياته من المنوفية، والذي يعمل مزارعًا بعزبة محسن بيه، ودائم التردد على منزل مصطفى بشبرا الخيمة عندما ينزل القاهرة، وهناك ودٌّ وصلة قرابة بينهما، وكثيرًا ما كان يلح على مصطفى في موضوع الزواج، حيث إنه قد بلغ الثلاثين من عمره، كما كان يسلط عليه والدته العجوز التي يقيم معها، حيث توفي

الأب عندما كان عُمْرُ مصطفى حوالى ثلاث سنوات، وليس له أخوة أو أخوات.

عرّفه عم عليوة على سميحة عندما تقابلوا ثلاثتهم بمديرية الزراعة بخصوص أمور تخص المزرعة.

ومن عجب أن البنات الثلاث أحسن من بعضهن، آية في الجمال والرقة والأنوثة!.. سبحان الخالق، مع أن الأم ليست جميلة والأب كذلك! (أُمال البنات طالعين حلوين لمين.. الله أعلم).

المهم أن العريس تقدّم بعد أن قام عم عليوة بمحاولات كثيرة لتحديد موعد اللقاء مع محسن بيه الذي يرفض زواج بناته من جنس الموظفين.

ثم وصف له كيفية الوصول إلى العزبة، وفي طريقه إلى العزبة بسيارته (الفيات ١٢٨ التعبانة)، وعلى مشارف العزبة استوقف فلاحًا يمتطي حماره ويسوقه (بشِكل حطب)، ومن حظ مصطفى أنه وقع في (خيشة) عبيط العزبة، فسأله عن عزبة الشحات، فأجابه العبيط قائلا»:

- تقصد محسن بيه؟

وأدخل «شكل الحطب» من نافذة السيارة، وكاد (يخزق) عين مصطفى، وأشار للعزبة من خلال (برابريز) السيارة مستطردًا:

- أهو.. شايف الفلة اللي واقفة قدام العربية دي.. هو هناك.

وظل مصطفى يضحك حتى وصل إلى الفيلا والرجل يحاول اللحاق به فلم يتمكن.

وفي الطريق كان الفلاح يدندن ويقول:

- محسن بيه محسن بيه.. يا رب يخليك يا محسن بيه..

ووصل مصطفى إلى الفيلا ووجد لوحًا من الرخام مكتوبًا عليه «فيلا محسن عبد العاطي الشحات»، كما وجد البواب النوبي يجلس على دكته الخشبية ولا العمدة فسأله:

- محسن بيه موجود؟

فهبَّ البواب واقفًا وسأله:

- مين حضرتك؟ معاك ميعاد مسبق؟

فرد عليه:

- أنا المهندس مصطفى شاكر وميعادي دلوقتي معاه.

فتركه قائلاً:

- من فضلك استناني هنا.

وغاب عنه حوالي عشر دقائق، ثم عاد وهو يدعوه للدخول قائلاً:

- اتفضل.. البيه موجود في انتظارك.

وقاده للبهو الكبير الضخم، وطلب منه الانتظار حتى يحضر البيه، وهلّ عليه محسن بيه في روبه الحرير المستورد، والبايب الذي يتأرجح بين شفتيه.. سبحان العاطي بدون حساب!

وبعد المصافحة والترحاب، سرعان ما جاءت التحية على «الترابيزة» المتحركة التي تجرها البنت «نظاجة» الشغالة.

وكانت التحية طبعًا من ثمار أشجار العزبة، تفاح وخوخ وبرقوق و... (كوكتيل يعني).

والحق أنه كان رجلاً كريمًا فعلاً، مثلما كان الله كريمًا معه.

وجلس الرجل بالقرب من العريس واضعًا ساقًا فوق أخرى، ثم بدأ الحديث متسائلاً:

- نعم يا سيدي طلباتك.

واستجمع مصطفى شجاعته وأجاب:

- بصراحة يا عمي أنا جاي أتشرف بحضرتك أولًا، ثم أطلب إيد كريمتكم بنت حضرتك.

- بنتي مين فيهم؟، ماهم ثلاثة.
- الكبيرة طبعًا يا فندم إحنا ناس نعرف الأصول.
- طبعًا طبعًا مهو عم عليوة شكرلي فيكم خالص، وعلى العموم بناتنا كلهم أحسن من بعض شكلًا وموضوعًا.
- يحصلنا الشرف يا فندم.

ثم استطرد محسن بيه قائلاً:

- هو حضرتك تعرفها؟ سميحة.. هي اسمها سميحة.

فأجاب مصطفى مرتبكًا:

- صدَّقني يا عمي أنا مكنت أعرفها، ولا أعرف اسمها حتى، لولا عم عليوة لما كانت بتيجي معاه عندنا في المديرية وعرَّفني عليها.
- طاب شوف يا ابني معلش سامحني، هتقدر توفر لبنتنا المستوى اللي هي عايشة فيه دلوقتي؟ لامؤاخذة يعني.
- طبعًا يا فندم طبعًا، الفضل لله أولاً وأخيرًا، أنا مرتبي كبير والحمد لله وحاصل على الدرجة الأولى مدير إدارة يعني.
- بتشتغل فين يا باشمهندس؟
- في مديرية الزراعة يا فندم.

- في الحكومة يعني؟
- طبعًا يا فندم في الحكومة.
- أعوذ بالله!
- ليه يا فندم؟!
- أنا بصراحة أكره موظفين الحكومة.
- لا يا فندم مش كل الناس زي بعض، بكرة تعاشرنا وتشوف.
- ما علينا.. يعني من غير مؤاخذة يعني مرتبك كام؟
- مرتبي كبير والحمد لله بخلاف الحوافز والمكافآت والبدلات.
- ولامؤاخذة يعني كله كدة على بعضه (بالحوافظ) والمكافآت في حدود كام؟

أجاب مصطفى وهو يفرك كفيه ويبتسم ابتسامة صفراء:

- والله يا فندم ده سؤال محرج شوية، لكن على العموم من حق سيادتك تعرف كل حاجة عني، هو دخلي الشهري كله على بعضه في حدود ألفين وخمسمائة جنيه.

صاح الرجل وكأن عقربًا قد لدغه:

- بس، ده السفرجي والطباخ أو السواق اللي عندي بيتحصل على أكتر من كدة بكتير!

- مهي مرتبات الحكومة كدة يا فندم.

- جالك كلامي؟ هتسكن بكام؟ وتاكل بكام؟ وتلبس بكام؟! على كدة البنت هتجوع وتتعرى بدون مقاطعة!

- لا يا فندم لا سمح الله ده إحنا نفاديها بعنينا.

ثم نهض محسن بيه من مجلسه وتمشى بالصالة وصفق للشغالة وطلب قهوة سادة لنفسه وسأل مصطفى:

- قهوتك إيه؟

- على الريحة يا فندم.. على الريحة.

وعاد الرجل إلى مجلسه ثم قال لمصطفى:

- شوف يا ابني.. إذا كنت ناوي تاخد بنتي فعلًا ورايدها بحق وحقيقي تعمل اللي هقولك عليه.

- حاضر يا فندم طلباتك أوامر.

وكان محسن بيه بين الحين والآخر يرد على تليفونه المحمول وينهي المكالمة بحرفي (OK).

وأنهى المقابلة قائلاً:

- عمومًا أشوفك مرة تانية لأني مرتبط بميعاد مهم دلوقتي، وبالمرة تشوفوا بعض.

وانصرف مصطفى وهو في حيرة من أمره، ولم يعرف ما هو المطلوب منه بالضبط لكي يخطب سميحة (ولو له نصيب فيها هياخدها هياخدها غصب عن عين أبوها).

(٢)

المشكلة أن مصطفى هو الآخر عنده علَّة تسيء إلى سمعته! وهي أن أمه كانت فيما مضى تخدم وتغسل في البيوت قبل اختراع الغسالات الكهربائية..

ولهذا السبب تم رفضه من قِبل بنات كثيرات عندما عرفن هذا السر، وحاليًا لا أحد يعرف عن تاريخ حياته شيئًا إلا المقربين منه جدًا والأقارب. كما أن مصطفى لا يعرف شيئًا عن محسن بيه حتى الآن والناس أسرار..

وفي زيارة مصطفى الثانية لمحسن بيه بدأ الثاني حديثه قائلاً:

- شوف يا سيدي، إحنا الأول نتغدى سوا عشان يبقى عيش وملح وتبقي معرفة خير.
- شكرًا شكرًا، دايمًا عامر.
- الغدا جاهز ودلوقت وقت غدا.

وأصدر أوامره بإعداد مائدة الغداء.

وكانت المائدة عامرة بما لذ وطاب، ومن خير وإنتاج العزبة، بط وحمام ودجاج مشوي، بالإضافة إلى الخضار والأرز المحمر والحلو.

وبعد الغداء استأنف محسن بيه حديثه قائلاً:

- شوف بقى يا سيدي إنت بإذن الله تشتغل معانا في المهنة بتاعتنا، بس يلزمك عمل عاهة بسيطة على أد ما قسم!!

ولما سمع مصطفى ذلك ذهل، وكاد يقع من طوله! وهو يصيح قائلًا:

- يا خبر أسود، مهنة إيه دي يا فندم؟!! وعاهة إيه اللي بتقول عليها؟!.. أنت حضرتك كنت..؟!

فقهقه محسن بيه وكاد أن (يفرهد) من الضحك ثم استطرد قائلاً:

- ماتخافش ماتخافش أوي كدة.. المهنة بتاعتنا دي ناس كتير بتشتغل فيها، ومنهم محسوبك، بس كان زمان.. شايف العز اللي إحنا فيه ده.. عزب ومزارع ومناحل وعمارات وفلل.. كل ده من المهنة بتاعتنا، بس ده كلام بيني وبينك ميطلعش برة إعمل معروف.

فسأله مصطفى وهو مازال في دهشته:

- إيه هي المهنة دي يا فندم؟

- الشحاتة.. التسول يعني، سميها زي ما تسميها.. بس إحنا مش بنسرق ولا بننصب على حد، دي مهنة شريفة، ومابنضربش حد على إيده.

- إزاي يا فندم؟!، مش معقول الكلام ده أبدًا!!

- صدّقني زي ما بقولك كدة، وأنا هكدب عليك ليه؟، وإنت هتبقى جوز بنتي، بس حلمك عليّ واسمع كلامي للأخر، وإنت حر، إن ماعجبكش خلاص كل واحد في حاله، ويا دار ما دخلك شر.

ثم استطرد قائلًا بصوت منخفض:

- أما العاهة دي مش هاتبقى مستديمة لا قدر الله، ودي حاجة مؤقتة لزوم الشغل، ومن كذا حاجة تختار منهم اللي يناسبك.

- زي إيه كدة؟!

- يعني مثلًا يكسرلك رجل، يكسر دراع، يبوظ عين، مش حق وحقيقي ده كدة وكدة، وده شغلنا إحنا بقى، ولينا الناس بتوعنا اللي يقوموا بالمهمة دي.. شغلتهم كدة.

ثم تساءل مصطفى وهو لم يصدق نفسه:

- وبعدين؟!

- وبعدين إذا كنت ناوي بصحيح إختار العاهة اللي تناسبك، وأنا من بكره أوصي عليك المعلم «ذعرب» صانع العاهات، وبعد كدة بإذن واحد أحد تنزل الشغل، وليك عليّ أحددلك الأماكن السُقع اللي فيها شغل يفتح النفس، وجرب حظك يا سيدي، اعتبرها تمثيلية، ماتعرفش تمثل؟!.. ما كلنا بنمثل.. وإذا كان فيه نصيب هيكون فيه جدول هتمشي عليه، بس أنت خد قرارك ورتِّب أمورك، وشغّل الهندسة بتاعتك بقى، ونشوف بعد كدة الأحسن، شغل الحكومة ولا الأعمال الحرة!، ودي شغلانة سهلة ولا فيها مجهود، ولا فيها مسئولية، ولا ضرايب ولا تأمينات ولا وجع دماغ، إنت يادوبك هاتقعد زي الباشا أو تقف على الرصيف وتمد إيدك للرايح واللي جاي وتقول لله يا محسنين!!

(٣)

وبعد تردد ذهب مصطفى إلى ورشة صانع العاهات أو المعلم أو الدكتور «ذعرب» كما يطلقون عليه، وقدَّم له كارت محسن بيه فرحب به وعرض عليه نماذج من العاهات كي يختار منها ما يناسب ذوقه!

ولم يقتنع مصطفى بأي عاهة منها، وقرر أن يصنع عاهته بنفسه!!

وانقطعت أخباره عن محسن بيه..

وذات يوم وبعد أداء صلاة الجمعة بمسجد «عمر مكرم» وفي طريقة إلى سيارته المركونة في أحد الشوارع الجانبية، لفت نظر محسن بيه شحاذٌ كان جالسًا على رصيف المسجد بنظارته السوداء، وجاكتته الرثة، وجلبابه الإفرنجي القصير، وشعر رأسه وذقنه وشاربه الطويل (ومداسه مشقق من كل جانب)، وكل الخارجين من الصلاة يحسنون عليه حتى امتلأت جيوبه!

تقدّم منه وتفرَّس في وجهه، ثم وضع في يده الممدودة ورقة

ذات خمسة جنيهات وهمس في أذنه:

- كلمه السر إيه؟

فأجابه هامسًا أيضًا:

- العزبة... الفيلا!!

فضحك كل منهما من قلبه ولكن بحرص شديد حتى لا يكتشف أحد أمرهما.

ثم استطرد محسن بيه قائلاً:

- هانتظر منك تليفون بعد ما تخلص شغل.

وانقطعت أخباره للمرة الثانية عن محسن بيه.. وبعد أيام توجه للفيلا دون موعد سابق وطلب مقابلة محسن بيه فوافق على الفور.

لكن مصطفى كان في ثورة غضب، فحاول محسن أن يهدئ من روعه قائلاً:

- مالك وشك مقلوب كدة ليه؟ حصل حاجة؟ وكنت غطسان فين اليومين اللي فاتوا؟!

فأجاب مصطفى وهو في قمة الانفعال:

- أنا مش عارف لغاية دلوقتي أنا طاوعتك إزاي، وأنا مستغرب

شاب جامعي مهندس زراعي أد الدنيا يقعد في الشارع بالمنظر ده ويمد إيده للرايح واللي جاي ويقول لله يا محسنين!! ، ويستحل حق غيره، ده أنا كنت قاعد في نص هدومي وخايف أحسن حد يعرفني، وإذا كان عليك إنت، أيامكم غير أيامنا، ثم إن ظروفك كانت تفرض عليك كدة، لا مؤهل ولا صنعة، طلعت لقيت نفسك شحات زي أبوك وجدك!، كان لازم أنت كمان تكون زيهم، وخلاص ربنا تاب عليك وبطلت شحاته، وبتصر إنك تجوز بناتك شحاتين؟!، يا راجل حرام عليك.. دي بنات زي الورد ومتخرجين من كليات محترمة، عايز تجوزهم لشحاتين؟! لا لا.. ده حتى ربنا ما يرضاش بكدة أبدًا، أنت لازم تغير مفهومك وتغير نظرتك للدنيا، واللي فات مات ولابد إنك تكفر عن سيئاتك.

وظل محسن بيه ينصت ويسمع إلى أن أنهى مصطفى حديثه، ثم سأله قائلاً:

- أنا غصبتك تعمل كدة؟ أنا مش من الأول خالص قولتك أنت حُر، وبعدين جاي دلوقتي تديني مواعظ، يا سيدى اللي بيحاسب العباد ربنا مش أنت ولا غيرك، ثم إني كنت باخد من الأغنياء وبدي للفقراء، أنت عارف العزبة دي بس فاتحة كام بيت؟، أنت عارف أنا بصرف مساعدات

شهرية لكام أسرة؟، كنت هاجيب منين عشان أعمل كدة، ولنفرض إني عملت سيئات، كل ده ما يكفرش عن سيئاتي؟ يا مصطفى.. يا باشمندس..

وبعد أن هدأت أعصابه واقتنع بعض الشيء بدفاع محسن بيه، تنفس الصعداء ثم سأله:

- خلاصة الكلام، هتجوزني بنتك ولا لأ، أنا مش جاي أترجاك، أنا عايز أسمع منك كلمة واحدة، أيوه ولا لأ؟

فابتسم محسن بيه ابتسامة صفراء مغلفة بالخجل ثم صفق طالبًا الشغالة:

- تحب تشرب إيه؟، قهوة؟ أيوه صحيح قهوتك على الريحة.

وطلب القهوة ثم استطرد قائلاً:

- إيه رأيك إن دمك بيبقى خفيف وإنت زعلان، على العموم أنا معجب بيك أشد إعجاب، ومعك حق في كل اللي قولته، المهم عملت بكام في اليومين دول؟! ومشيت على الجدول ولا لأ؟!!

فمد مصطفى يده في جيبه وأخرج مظروفًا كبيرًا منتفخًا بالنقود، وقدمه لمحسن بيه قائلاً:

- إتفضل خد الفلوس أهي، حطها في أعمال الخير بتاعتك وعفا الله عما سلف.

فأخذ منه المظروف وعد ما به من نقود وقال:

- عشر تلاف جنيه في حوالي عشرين يوم، معقولة!!.. مش بطالة، يعني مستغني عنهم؟ خليهم مع فلوس اللحمة بتاع الغلابة أهو العيد الكبير قرب.

ثم صمت برهة واستطرد:

- وده يبقى حق غيرك إزاي بقى؟

- طبعًا حق غيري، مش الفلوس دي كانت هتبقى لحد محتاج فعلًا مش لاقي ياكل؟!

وفي أثناء الحديث دخلت سميحة شخصيًّا بصينية القهوة وقدَّمت لكل منهما فنجانه، واستدارت لكي تخرج وتتركهما، ولكن والدها أمرها بالبقاء معهما قائلًا:

- اقعدي يا بنتي.. اقعدي شوية مع عريسك!

وأخذ فنجانه في يده وتركهما معًا.

(٤)

وبدأت سميحة الحديث مع مصطفى لأول مرة وابتسامتها الساحرة تسبق كلامها:

- إزيك يا مصطفى؟؟ عامل إيه؟

- أنا الحمد لله كويس بوجودك، إنتي اللي عاملة إيه؟

- على فكرة يا مصطفى أنا كنت متابعة وسامعة كل اللي حصل بينك وبين (دادي) من الأول للآخر، وقولت أستني لما أشوفك هتعمل إيه، والحقيقة أنت طلعت جدع وعجبتني جدًا وكبرت في نظري، ولو استمريت في التمثيلية دي على طول كنت رفضتك.. أيوه كنت هرفضك.. أنا استحالة أتجوز واحد شحات، كفاية شحاتة بقى، عايزين ننضف، وأولادنا يطلعوا محترمين، وإن شاء الله بكره أشتغل بشهادتي وأساعدك في المعيشة.

هز مصطفى رأسه وابتسم ابتسامة إعجاب ثم قال:

- يعني موافقة نبدأ حياتنا بعيد عن التمثيل والضحك على

الناس والاستيلاء على حقوق الغير؟

- طبعًا طبعًا أنا موافقة على كل ده، وأنا مؤمنة إن ربنا هيساعدنا ومش هنحتاج لحد.

- أنا دلوقتي بس ارتحت نفسيًا وحسيت إن حمل تقيل إتشال من على ضهري.

وعندما طالت (القعدة)، وخوفًا من الأم على ابنتها، طلبت من الأب التدخُّل، فتنحنح من بعيد قبل الدخول عليهما في حجرة الصالون، فقطع الحديث وقال الأب وهو في منتهى السعادة وهو ينظر إليهما:

- خلاص نقول مبروك، إحنا دلوقتي كسبنا راجل محترم في العيلة.

وجاءت الأم كذلك وباركت لهما و(فقعت زغرودة) هزت جدران الفيلا.